٤
قصص الصحابة
مُصعبُ بن عُمَيرٍ (رضى الله عنه)
عماد الشافعى

مُصْعَبُ بن عُمَيرٍ

كَانَ الفَتى يَسيرُ فى شَوارعِ مكةَ يختالُ تيهاً وعُجْباً، يَفوحُ منه عطرٌ أخَّاذٌ، ويرتدى ثياباً فاخرةً ونعلاً جَديداً. وصَل الفَتى إلى مُنتدى الشُبان فَلقى ترحيباً من الجميعِ وأفسحوا له مكاناً فى صَدْر المجلسِ، فهو يتمتعُ بجمال الرُّوحِ وبهاءِ الطَّلعة، وحُلْوِ اللِّسان.

ودار الحديثُ بين الشبان عن أرقِّ الصَّبايا وأجْمل الفتيات، ثُمَّ انتقلَ إلى أعْذب ما كَتب الشُّعراء فى وَصْف الجمالِ والحُبِ. وكان الشبانُ يفتحون قُلوبهم لما يقولهُ صاحبُ المظهرِ الأنيقِ والعقلُ الراجح «مصعب بن عُمَيْرٍ».

وكان مَصعبُ يشعرْ بفرحة مبعثها ذلكَ الإحتفاءُ الشديدُ به. لذا كان يُرسل من حينٍ لآخرَ ضحكةً مهذبةً أو التفاتةً ذكيةً. قال أحد الشبانُ: لعلكم سمعتم عن مُحمدٍ الأمين والدينِ الجديد؟!

وقال آخرُ: إنه يزعمْ انه نبىٌ مرسْلٌ من عند الله لهدايةِ الناسِ، وترك عبادة الأصنامِ.

وقال ثالثُ: إن أتباعهُ الآن قلةٌ. . وهُم من الفقراء، وأراهم يجتمعونَ بعيداً عن أعين الناسِ فى دار الأرقمِ بن أبى الأرقم هناك عند جبل الصَّفا.

وطالَ الجدلُ عن محمد والدين الجديد، وموقفُ قريشٍ منه ومن دعوته وكان مُصْعبُ يُصْغى لما يقوله الفتيانُ دون أن يُعَقب.

وانفضَّ السَّامرُ وخرجَ مُصعب فى هَدْأة الليل عائداً إلى بيته، وفى الطريق كان يفكرُ فيما سمعهُ من أصحابه: «إن محمداً ومن آمنَ بدعوته يجتمعونَ فى دار الأرقمِ بعيداً عن فُضُولِ قريشٍ وأذاها. . ويزعمُ أنه نبىٌ مرسلٌ من الله لهداية البشر».

ذَهبَ مُصعب فى مساء اليوم التالى إلى جبل الصَّفا، وعندما اقتربَ من دارِ الأرقمِ سمعَ ترتيلاً شجياً جعلهُ ينتظرُ لحظةً ويُصْغى فى خُشُوعٍ. . الكلماتُ مرصوفةٌ رصفاً رائعاً، والعباراتُ لها إيقاعٌ جميلٌ لا تَرْقَى إليها لغةُ البشرِ.

رَدَّدَ مُصْعب فى نفسه: إن هذا الكلامَ ليس بالشِّعر!

جلسَ مُصعب بين يدى النَّبى وهو يَشْعرُ بسكينة وراحة لا يدرى مبعثهما. ربما كانَ مَبْعثهما مُنَاخ الإيمانِ وصَدَى القُرآن الذى يتردَّدُ فى أركان الدَّار.

سَمعَ مصعبُ آياتِ القرآن من النبَّى فخَشعَ لها قلبهُ، ورأى المسلمونَ يُصلون فأخذتهُ الفرحةُ والدَّهشةُ معاً. وضعَ النبى يده على صَدْرِ الفتى فسكنتْ جوارحهُ واطمأن قلبهُ وراح يُردد آياتِ القرآنِ كما سمعها بسهولةٍ ويُسْرٍ.

انطلقَ مُصْعبُ عائداً إلى داره الفسيحة تَغْمرهُ الفرحةُ، ويشعرُ بخفةٍ كأنهُ طائرٌ جميلٌ يحلقُ بجناحيه فوق نهرٍ، فى يومٍ غيرِ عاصفٍ.

ويدخلُ الفتى دارهم الفسيحةُ التى تَغُصُّ بالجوارى والعبيد، وتسأله أُمه التى كانتْ تجلسُ فى باحةِ الدَّارِ: طابَ مساؤُكَ يا ولدى.. أين كُنتَ؟، ومالكَ الليلةُ تبدو ساهماً حالماً منتشياً؟!، فيقول: كُنتُ أتسامرُ يا أمى مع صفوةِ الرِّفاق وخيرةِ الشُّبان.

نادت الأمُ على جاريةٍ: جَهِّزى بسرعةِ الطعامَ لسيدك.

وسألتهُ الجاريةُ: أينَ أضعُ لك طعامكَ يا سيدى؟

أشارَ إليها مُصعبُ بيده قائلاً: لَستُ جائعاً.. يكفينى ما تناولتهُ هذه الليلةَ.. دعونى آخذُ قِسْطاً من الراحة.

دخلَ الفتى غُرفتهُ الفارهةُ، وتمدَّدَ على فِراشه الوثيرِ هادئاً مُنْتشياً، يُحدِّقُ ببصرهِ فى سَقْفِ الغُرفةِ ويسترجعُ ما رآهُ وما سَمعهُ فى دار الأرقم.

***

أصبحَ مُصعبُ يخرجُ من بيتهِ فى الظَّلامِ خشيةَ أن يراهُ أحدٌ، ويترددُ كل مساء على دار الأرقمِ، يسمعُ القرآنَ، ويُصلى لله. وكانت «خَنَّاس بنتُ مالك» أم مصعب سيدةً مُهابةً إلى حَدِّ الرَّهبة، لها شخصيةٌ قويةٌ، وكلمةٌ لا تُردُّ، ويُعملُ لها فى الدار ألفُ حسابُ وكان العبيدُ والجوارى يَرْجُفون عند سماع صوتها. وكان مُصعبُ لا يَخْشى فى الدنيا ـ بعد الله ـ سِوى ثورةَ أمه.

كَتَم مُصعبُ إسلامهُ عن أمه وعن عَشيرتهِ تفادياً للمُواجهةِ وفى

تلكِ الأيامِ كانتْ أعْينُ قريشٍ وآذانها تتابعُ كل تحركات مُحمدٍ وأصحابه، وتُزيقُ أتباعه الفقراءَ والمستضعفينَ سُوءَ العذابِ.

وذاتَ يومٍ رأى عُثمانُ بن طلحةَ «مُصعبَ» وهو يدخلُ خفيةً دارَ الأرقم، فلم يُصدق عينيه وسأل نفسه:

- معقولُ؟!.. أيكونُ مصعب ـ الفتى المدللُ ـ قد أسْلَمَ وتبع محمداً وأصحابُه؟!

وعندما رآهُ مرةً أخرى فى إحدى شعابِ مكةَ مع النبى وصحبه وتأكد له الأمرُ، ذهبَ إلى أُمه مُسْرعاً يُخبرها بما رآهُ. وهنا طارَ صَوابُ الأم. وثارتْ، ونادتْ على ابنها بلهجةٍ قاسيةٍ:

مُصعب.. هل صحيحُ ما سمعته عنكَ؟

- وماذا سَمِعْتِ يا أُمى؟

- سَمعتُ أنَّكَ صَبَأتَ وتركتَ اللاتَ والعُزَّى ودين آبائك، واتبعتَ مُحمداً.

- نعم يا أُمى.. آمنتُ باللهِ رباً وبالإسلامِ ديناً، وبُمحمدٍ

رسولاً، وبالقرآنِ كتاباً مُنَزَّلاً من عند الله، وإن هذا لهو الحقُ واللهِ يا أمى.

صرختْ الأمُ وهَمَّتْ أن تصفعهُ بلطمةٍ قاسيةٍ، ويداها مُشرَّعةٌ تكادُ تهوى بها على وجههِ، وعيناها يتطايرُ منها بريقٌ منذرٌ.. لكنها فى اللحظةِ الحاسمةِ أمسكتْ نفسها تحتَ ضَغْطِ أُمُومتها وصَاحتْ:

- هل فتنكَ مُحمدٌ يا ولدى كما فتنَ فُقراء قُريشٍ؟

- إن ما جاءَ به مُحمدٌ هو الحقُ يا أمى، إنه دينٌ يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المُنكر، ويُسوِّى بين الناس.

صَاحتْ الأم ساخرةً: يُسوى بين الناس؟!.. أى يجعل العبدَ يتمردُ على سيده، ثم يُصبحُ العبدُ سيداً، والسيدُ عبداً.. هذه فَوْضى.. إسمع يا ولدى لا تجادلنى فى هذا الأمر. إننى آمركَ، عُدْ إلى دينك وإلى دين آبائكَ وإلا سينالك منى ما تكرهُ. فقال مصعب:

- لقد اطمأنَّ قلبى للإسلامِ، ولن أرجعَ عن ذلك يا أمى.

- هكذا؟! . . تتحدى أمك، وتتحدى عشيرتكَ . . هذا واللاتَ والعُزَّى لن يكونَ، وأمرتْ العبيدَ بحبسه فى غُرفة بالدار .

وأصبحَ مُصعبٌ أسيراً فى بيته يتلقى طعامَهُ وشرابُه فى أوقات مَعْدودة، وحُرِمَ من لقاء النبى وأصحابه . ظَلَّ مُصعب بن عُميرَ فى خُلْوته حَبيساً يتلو القُرآن ويُصلى لله . وكان بعضُ المسلمين فى مكةَ يلقون من عشائرهم التَّعذيبَ، ورأى النبى ما عليه أصحابُهُ من شدة فأذن لهم فى الهِجْرة إلى أرضِ الحبشة، لأن فيها ملكاً لا يُظلم عندهُ أحدُ، حتى يأذنَ اللهُ بالفرجِ .

وسمعَ مُصعب عن هجرة بعض المؤمنين إلى الحَبشة، فاحتالَ لنفسه وغَافَلَ أمه وتسلَّل فى ليلة الهجرة ولحقَ بإخوانه .

نَزلَ المُسلمون وفيهم مُصعب بن عمير أرضَ الحبشة ودخلوا على الملك «النجاشىِّ» واستجاروا به فأجارهم وأكرمَ وِفَادتَهُم . فعاشُوا هُناك فى أمان، يأكلون ما يأكلُ الناسُ، ويعملون فى الزراعة والرعى ويُصلُّون لله . وكانتْ أرضُ الحبشة زاخرةً

بالخيرات . . ماءُ رقراقُ، وخُضرةٌ تَسُرُّ الناظرينَ، وأناسُ بُسطاءُ طيبون .

وعاشَ مُصعب هناكَ زاهداً فى الدنيا، ملبسهُ بسيطٌ، ومطعمه يَسيرٌ، ولسانه رَطْبٌ بذكر الله . وفى ظِّل شجرة جلسَ ساهماً، يتذكر أمه وإخوته، ودارهم الفسيحةُ التى تَرْفُل فى التعليم، ويتذكر أيامَ الطفولةِ والصبًا والديباجَ والحريرَ والعُطورَ، والصبايا اللائى كُنَّ يتحَّرقن شوقاً إلى رؤيته أو سماع صوتهِ وهو لا يعبأ بهن، أو يتظاهر بذلك .

نظرَ مُصْعبُ إلى قميصهِ المُرقَّعِ الذى تغَّير لونهُ وأخذَ يُردد، الحمد لله، رب أسألك رضاكَ . وأخذه الحنين إلى رؤية النبى ﷺ وسماع القرآن بصوته .

عاد مُصعبُ بن عمير والذين معه بعد مدةٍ إلى مكة، ولكنهم وجدوا الأحْوال فيها قد زادتْ سُوءاً، وأن المشركين يسومون المُسلمين سُوءَ العذابِ .

والتقى مصعب بأمه التى هَدَّها الحزنُ على فِراقِ ولدها وتَبدُّلِ حاله وحَاولتْ من جديد اقناعهُ وردَّه عن الإسلام بالتودد إليه لكن دُونَ جَدوى، فثارتْ وأمرتْ بحبسه حتى لا يلحقَ بالنبى وأتباعه.

وهنا يثورُ لأول مرةٍ ويُقسمِ ليَقتلنَّ كل من تستعين به أمه على حبسهِ. وقفتُ الأمُ أمامَ عِنادِ إبنها حائرةً عاجزةً حزينةَ.

وعندما عزمَ نفر من المسلمين على الهجرة مرةً ثانيةً إلى الحبشة، أعَدَّ مصعبُ نفسهُ للسفرِ، وفى المساءِ وقفَ الفَتَى يُودِّعُ أمه باكياً، وأمه تسألهُ بلوعةٍ وأسَى: لماذا الرَّحيلُ يا ولدى.. لماذا تتركُ هذه النِّعم إلى الفقرِ والحرمانِ والشَّقاءِ؟!

فيجيبها الفتى بهدوءٍ ويقينٍ: يا أمى نعيمُ الدنيا زائلٌ، وما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقَى.

وهنا تثورُ أمُه وتصيحُ: إذهبْ.. إذهبْ لشأنكَ لقد أعييتنى، ولم أعُدْ لك أمّاً!

فيقتربُ منها الفتى مُشْفقاً ويحدثها بتودد: يا أمى واللهِ إنِّى

أُحبكِ وإنى لكِ ناصحٌ، وعليكِ شَفوقٌ، فاشهدى أنه لا إله إلا اللهُ، وأن مُحمداً رسولُ الله.

فتصيحُ الأمُ غاضبةً: قسماً بالثواقب، لا أدخلُ فى دينكَ فَيُزْرى برأيى. ويَضْعُف عقلى.

وقفُ مُصعبُ بن عُمير حائراً حَزيناً، وتتحدَّرُ من عينه دمعةً فيمسحها على عَجَلٍ، ويُقبِّلُ أمهُ بحنانٍ وشَفَقةٍ، ويخرجَ من الدار يحملُ شوقاً كبيراً وزاداً يسيراً.

هاجرَ مُصعبُ بن عُميرٍ مع نفرٍ من المُسلمينَ إلى الحبشة، وهُناك عَملَ بفلاحة الأرضِ، وعاشَ المُسلمون فى الحبشة فى أمانٍ. لكن قُريشَ أرسلتْ عمرو بن العاص إلى النَجاشىِّ ملكِ الحبشة وطلبَ منه تسليم الفارِّين من مكة، ورفضَ الملكُ تسليمهم عندما علم أنهم على حَقٍ.

وبعد حينٍ عاد النبى إلى مكةَ، وأصبحَ يُلازم النبى كَظلِّه، وكان النبى يُحبه ويقولُ لمن حوله: لقد رأيتُ مُصعباً هذا وما بمكة

فتىً أنعم عند أبويه منه، ثم تركَ ذلك كله حباً لله ولرسوله.

وكان مُصعبُ يرددُ: الحمدُ لله على نعمةِ الإسلام.

جاءَ وفدٌ من المدينة يطوفونَ بالكعبةِ فى مَوسمَ الحج، والتقى الوفدُ بالنبى ﷺ، وعَرض عليهم النبى الإسلامَ، وتَلَى عليهم بعضَ آياتِ القُرآنِ، فقبلوا به، وشرحَ الله صُدورهم للدين الجديد.

وفى العام التالى: أقْبَلَ من المدينة اثنى عشرِ رجلاً وامرأتان فى مَوسُم الحج، يبايعون الرسولَ ويطلبون منه أن يُرسل معهم من يقرأ لهم القرآنَ ويُعلمهم تعاليمَ الإسلامِ ويُصلى بهم. فأرسلَ النبىُّ مُصْعبَ بن عُمير مع هذا الوفد. وفرحَ مُصْعبْ.. إن النبى اختاره ليكون داعياً إلى اللهَ فى المدينة وسفيراً للإسلام، إنه شرفٌ عظيمٌ.

نزل مُصْعبٌ بن عُمَيرِ المدينةَ فى ضيافة «أسعدِ بن زُرارة» وكان أسعدُ يخرج مع مصعبٍ إلى القبائلِ والمجالسِ يدعُونَ الناسَ إلى الإسلامِ، ويتلو مصعب عليهم القرآنَ ويوضحُ لهم قواعد الدِّين.

وعاد مُصعبُ إلى مكةَ فى مَوْسمِ الحج التالى ومعه أكثرُ من سبعينَ من رجالٍ ونساءِ قبيلتى الأوس والخزرجِ، كانوا قد أعلنوا إسلامهُم. وإجتمع بهم النبىُ ﷺ عند العقبةِ، وبايعهم على ألا يُشركوا بالله شَيئاً وأن يَعْملوا صَالحاً وأن ينتهوا عن فِعْلِ المُنكرِ.

وبفضل الدُخولِ فى الإسلامِ انتهتْ الحُروبُ الدائمةُ التى كانت بين قبيلتى الأوسِ والخزرجِ فى المدينةِ، وأصبحوا إخواناً متحابين، وأحبوا النبى حُباً كبيراً، وأرسلوا إليه من يدعوهُ إلى الهجرةِ إليهم والإقامةِ بينهم فى المدينة.

أذنَ النبى ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فتركَ كثيرٌ من المُسلمينَ ديارهُم وأمَوالهم فى مكةَ وهاجروا طاعةً لله، وحُباً فى رسول الله. وبعد حينٍ يهاجر النبى وصاحبه أبو بكر الصديق إلى المدينة، وهُناك يفرحُ المؤمنونَ، وتبدأُ مرحلةٌ جديدةٌ فى تأسيسِ دولةِ الإسلامِ.

وكان لابدَّ من المواجهةِ بين المشركين فى قريشٍ وبين المؤمنين فى

المدينة، فكانت معركةُ بدرٍ الكبُرى، وكان مُصعبُ بن عُمَيرٍ فيها حَاملاً الرَّايةَ.

وانتصرَ المسُلمونَ بفضلِ الله، وفرَّ المُشْركونَ من أرضِ المَعْركة، وقُتل منهم سبعونَ رجلاً، وأُسر مِثْلهُم. وعاد المُسلمون من أرض المعركة يرددون كلمات التكبير، وتزوج مصعب بن عمير من إمرأة مؤمنة من نساء المدينة، وحزنتْ قريشُ على قَتْلاها، وافتدتْ أسْراها. وعقدَ أبو سفيان مجلسَ حربٍ، عَبَّأ فيه رجالهُ وأرادَ الإنتقامَ. فجهَّز جَيشاً هائلاً من ثلاثة آلاف مُقاتلٍ، والتقى الجيشانِ عند جبل أُحد، ووقف النبى ﷺ ينظم صفوفَ جيشِ المُسلمين، ويَصدرُ تعليماته للجنودِ، ويُحذِّر الرُّماةَ من فوق الجبل بعدم مُغادرة أماكنهم.

ودارتْ المعركةُ، وكان النَّصر للمسلمن، وانسحبَ المُشركون من أرضِ القتالِ، ورأى الرُّماة ذلك فظنوا أن المعركة قد انتهت، فتركَ معظمهم أماكنَهم وأسرعُوا لجمعِ الغنائمِ.

كانتْ الرايةُ بيد مصعبِ بن عُميرٍ. ولما رأى المُشركون نزُول

الرُّماةِ أسرعوا عائدين من وراء الجبل وصَوَّبُوا سهامهم ورِماحُهم نحو المُسلمين، فأصابوا منهم عدداً، وهُنالك اضطربَ جيشُ المسلمين، وتحوَّلَ النصرُ إلى هزيمةٍ.

ورأى مُصعبُ بن عمير المشركين يُركزون هُجومَهمُ على رسول الله، فجعل نفسه درْعاً لصدِّ هجومِهم وراحَ يصيح كالزئير: الله أكبرُ. وما مُحمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسلُ.

كان مصعبُ يحملُ الرَّايةَ بشماله والسَّيفَ بيمينه ويقاتلُ بشهامةٍ، وأقبلُ «ابن قَميئة» شاهراً سيفه فضربهُ على يده فقطعها، فتناول مصعبُ الرَّايةَ بيمينه بسرعةٍ وهو يصيح بتحدٍ: وما مُحمدُ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرُّسلُ. فضرب الفارسُ اليدَ اليمنى لمصعبٍ وكادتْ الرايةُ تسقطُ منه ويدوسها الجندُ، فضمَّها مُصْعبُ بعَضُديه وهو يصرخُ والدِّماء تنهمرُ من يديه: « وما مُحمدُ إلا رسولٌ. فحمل الفارسُ الرُّمحَ وأنفذهُ في صدرهِ بوحشيةٍ. فوقعَ

مصْعبُ، وسقطتْ الرايةُ على الأرضِ وداسها الجُندُ، والدماءُ الذكيةُ تسيلُ من جسدهِ على الثَّرى الطاهرِ، ووجههُ مُضَمخٌ فى الترابِ فى سجدةٍ أبديةٍ.

وانتهتْ الحربُ، وغادر المُشركونَ المكانَ، وراح النَّبى يتفقدُ أرضَ المعركةِ ليرى شُهداء المسلمين، وعند جُثْمان مُصعب وقَفَ النبىُ صامتاً حزيناً، فتحدرتْ من عينهِ دمعةٌ وهو يُرددُ: ﴿من المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قَضَى نحبهُ، ومنهم من ينتظرُ وما بدَّلُوا تبديلاً﴾.

كان الصحابةُ يُكفنون شُهداءَ الحرب وَيدْفنونهم، ولم يكُن لمصعبَ بن عُميرٍ إلا ثوبٌ بسيطٌ، إذا غطُّوا رأسهُ خرجتْ رجلاه وإذا غطُّوا رجليه ظهرتْ رأسُه، فسألوا النبى ﷺ: ماذا نفعلُ؟

قال النبى: غطوا رأسهُ واجعلوا على رِجْلهِ الإذْخَر (عُشبٌ).

ودُفنَ مُصعبُ بن عُمَيرٍ ـ أول سفيرٍ للدعوةِ الإسلامية ـ مع إخوانه الشُهداء. ووقفَ النبىُ ﷺ والصحابُة يُودِّعون إخوانهم الشَّجعانُ فى حُزنٍ عَميقٍ. والنبى يُخاطبهم كأنهم أحياءُ:

«إنَ رسولَ الله يَشهدُ أنكم الشُّهداءُ عند الله يومَ القيامه».

تمت بحمد الله